من أحاديث الإذاعة :

الســـعادة ... *

للأستاذ علي الطنطاوي

كنت أقرأ في ترجمة (كانت) الفيلسوف الألماني الأشهر ، أنه كان لجاره ديك ، قد وضعه على السطح قبالة مكتبه ، فكلما عمد إلى شغله صاح الديك،فأزعجه عن عمله ، وقطع عليه فكره . فلما ضاق به بعث خادمه ليشتريه ويذبحه ويطعمه من لحمه ، ودعا إلى ذلك صديقاً له ، وقعدا ينتظران الغداء ، ويحدثه عن هذا الديك ، وما كان يلقى منه من ازعاج ، وما وجد بعده من لذة وراحة ، فقكر في أمان ، واشتغل في هدوء ، فلم يقلقه صوته ، ولم يزعجه صياحه ...

... ودخل الخادم بالطعام وقال معتذراً ، إن الجار أبى أن يبيع ديكه ، فاشترى غيره من السوق ، فانتبه (كانت) فإذا الديك لا يزال يصيح !

* * *

فكرت في هذا الفيلسوف العظيم فرأيته قد شقي بهذا الديك لأنه كان يصيح ، وسعد به وهو لا يزال يصيح ، ما تبدل الواقع ما تبدل إلا نفسه ، فنفسه هي التي أشقته لا الديك ، ونفسه هي التي أسعدته ، وقلت : مادامت السعادة في أيدينا فلماذا نطلبها من غيرنا ؟ ومادامت قريبة منا فلماذا نبعدها عنا ، إذ نمشي إليها من غير طريقها ونلجها من غير بابها ؟ إننا نريد أن نذبح (الديك) لنستريح من صوته ، ولو ذبحناه لوجدنا في مكانه مائة ديك ، لأن الأرض مملوءة بالديكة ، فلماذا لا نرفع الديكة من رؤوسنا إذا لم يمكن أن نرفعها من الأرض ؟ لماذا لا نسد آذاننا عنها إذا لم نقدر أن نسد أفواهها عنا ؟ لماذا لا نجعل أهواءنا وفق ما في الوجود إذا لم نستطع أن نجعل كل ما في الوجود وفق أهوائنا ؟

أنام في داري فلا توقظني عربات الشارع وهي تزلزل بسيرها الأرض ، ولا أصوات الباعة وهي ترعد في الجو ، ولا أبواق السيارات وهي تسمع الموتى ، وتوقظني همسة في جو الدار ضعيفة ، وخطوة على ثراها خفيفة . فإن نمت في الفندق لم يوقظني شيء وراء باب غرفتي . فإن كان نومي في القطار لم يزعجني عن منامي حديث جيراني إلى جنبي ، ولا صوت القطار وهو يهتز بي . فكيف احتملت هنا ما لم أكن أحتمله هناك ؟ وآلمني هناك ما لم يؤلمني هنا ؟

ذلك لأن الحس كالنور،إن أطلقته أضاء لك ماحولك فرأيت ما تحب وما تكره ، وإن حجبته حجب الأشياء عنك ، فانت لاتسمع أصوات الشارع مع أنها أشد وأقوى،وتسمع همس الدار وهو أضعف وأخفت،لأنك وجهت إلى هذا حسك،وأدخلته نفسك فسمعته على خفوته كما ترى في الضياء صغائر الأشياء ، وأغفلت ذاك وأخرجته من نفسك ، فلم تسمعه على شدته ، وخفي عنك كما تختفي في الظلام عظائم الموجودات . فلماذا لا تصرف حسك عن كل مكروه ؟ إنه ليس كل ألم يدخل قلبك . ولكن ما أدخلته أنت برضاك ، وقبلته باختيارك ، كما يدخل الملك العدو قلعته بثغرة يتركها في سورها . فلماذا لا نقوي نفوسنا حتى نتخذ منها سوراً دون الآلام ؟

أيها السادة المستمعون :

إني أسمعكم تهامسون . تقولون : « فلسفة وأوهام ». نعم ،

(*) حديث كتب لمحطة الشرق الأدنى ، فسجلته في مصر وأذاعته من يافا يومي (٧) و (٨) مايو ١٩٤٧ .

من في الأرض يضلوك عن سبيل الله » .

« إن يتبعون إلا الظن وإن هم إلا يخرصون » .

أكثر الناس لا يعلمون إلا ظاهراً من الحياة الدنيا ، أمور من المحسات عرفوها بالممارسة ، والتعود ، وأدركوها بالتقلب في المعاش ، والتجربة . وهم في غفلة عن الحقائق الكبرى ، التي تتصل بالمبدأ والمنتهى والقوانين التي تسير الناس في الحياة ، والتي تقضي بين الحق والباطل والخير والشر ، وتفصل بين أمة مصلحة وأخرى مفسدة ، وجماعة يغلب فيها الحق ، وأخرى يسود فيها الباطل . وهم في غفلة عن الآخرة وما فيها من جزاء عادل ، وقصاص حق .

عبد الوهاب عزام

إنها فلسفة ، ولكن ليست كل فلسفة هذياناً . وإنها أوهام ، ولكن الحياة كلها أوهام تزيد وتنقص ، ونسعد بها ونشقى ، أو شيء كالأوهام :

يحمل الرجلان المتكافئان في القوة الحمل الواحد ، فيشكو هذا ويتذمر فكأنه حمل حملين ، ويضحك هذا ويغني فكأنه ما حمل شيئاً ، ويمرض الرجلان المتعادلان في الجسم المرض الواحد فيتشاءم هذا ويخاف ، ويتصور الموت ، فيكون مع المرض على نفسه ، فلا ينجو منه ، ويصبر هذا ويتفاءل ويتخيل الصحة ، فتسرع إليه ويسرع إليها . ويحكم على الرجلين بالموت ، فيجزع هذا ويفزع فيموت ألف مرة من قبل الممات ، ويملك ذلك أمره ويحكم فكره ، فإذا لم تُشَجِّعه من الموت حيلته ، لم يقتله قبل الموت وهمه ...

وهذا بمارك رجل الدم والحديد ، وعبقري الحرب والسلم ، لم يكن يصبر عن التدخين دقيقة واحدة ، وكان لا يفتأ يوقد الدخينة من الدخينة نهاره كله فإذا افتقدها خلَّ فكرُه ، وساء تدبيره . وكان يوماً في حرب فنظر فلم يجد معه إلا دخينة واحدة ولم يصل إلى غيرها ، فأخرها إلى اللحظة التي يشتد عليه فيها الضيق ويعظم الهم ، وبقي أسبوعاً كاملا من غير دخان ، صابراً عنه أملا بهذه الدخينة ، فلما رأى ذلك ترك التدخين ، وانصرف عنه ، لأنه أبى أن تكون سعادته مرهونة بلفافة تبغ واحدة ...

وهذا العلامة المؤرخ الشيخ الخضري ، أصيب في أواخر عمره بتوهم أن في أمعائه ثعباناً ، فراجع الأطباء ، وسأل الحكماء فكانوا يدارون الضحك حياء منه ، ويخبرونه أن الأمعاء قد يسكنها الدود ، ولكن لا تقطنها الثعابين . فلا يصدق .

حتى وصل إلى طبيب حاذق بالطب ، بصير بالنفسيات ، قد سمع بقصته ، فسقاه مسهلا وأدخله المستراح وكان قد وضع له فيه ثعباناً فلما رآه أشرق وجهه ، ونشط جسمه ، وأحسَّ العافية ونزل يقفز قفزاً ، وكان قد صمد متحاملا على نفسه يلهث إعياء ، ويئن ويتوجع ، ولم يمرض بعد ذلك أبداً .

ما شفى الشيخ لأن ثعباناً كان في بطنه ونزل ، بل لأن ثعباناً كان في رأسه وطار ، لأنه أيقظ قوى نفسه التي كانت نائمة ، وإن في النفس الإنسانية لقوى إذا عرفتم كيف تفيدون منها صنعت لكم العجائب .

تنام هذه القوى فيوقظها الخوف ويوقظها الفرح ؛ ألم يتفق لواحد منهم أن أصبح مريضاً ، خامل الجسد ، واهي العزم لا يستطيع أن ينقلب من جنب إلى جنب ، فرأى حيَّة تقبل عليه ، ولم يجد من يدفعها عنه ، فوثب من الفراش وثباً ، كأنه لم يكن المريض الواهن الجسم ؟ أو رجع إلى داره العصر وهو ساغب لاغب ، قد هدَّه الجوع والتعب ، لا يبتغي إلا كرسياً يطرح نفسه عليه ، فوجد برقية من حبيب له أنه قادم الساعة من سفره ، أو كتاباً مستعجلا من الوزير يدعوه إليه ليرقى درجته ، فاحسَّ الخفة والشبع ، وعدا عدواً إلى المحطة ، أو إلى مقر الوزير ؟

هذه القوى هي منبع السعادة تتفجر منها كما يتفجر الماء من الصخر نقياً عذباً ، فتتركونه وتستقون من الغدران الآسنة ، والسواقي المكرة .

أيها السادة والسيدات : إنكم أغنياء ولكنكم لا تعرفون مقدار الثروة التي تملكونها ، فترمونها زهداً فيها ، واحتقاراً لها .

يصاب أحدكم بصداع أو مغص ، أو بوجع الضرس ، فيرى الدنيا سوداء مظلمة ، فلماذا لم يرها لما كان صحيحاً بيضاء مشرقة ؟ ويحمى عن الطعام ويمنع منه ، فيشتهي لقمة الخبز ومضغة اللحم ، ويحسد من يأكلها ، فلماذا لم يعرف لها لذتها قبل المرض ؟

لماذا لا تعرفون النعم إلا عند فقدها ؟

لماذا يبكي الشيخ على شبابه ولا يضحك الشاب لصباه ؟

لماذا لا نرى السعادة إلا إذا ابتعدت عنا ، ولا نبصرها إلا غارقة في ظلام الماضي أو متشحة بضباب المستقبل ؟

كل يبكي ماضيه ، ويحن إليه ، فلماذا لا نفكر في الحاضر قبل أن يصير ماضياً ؟

أيها السادة والسيدات :

إنا نحسب الغنى بالمال وحده ، والمال وحده ؟ ألا تعرفون قصة الملك المريض الذي كان يؤتى بأطايب الطعام فلا يستطيع أن يأكل منها شيئاً ، فانظر من شباكه إلى البستاني وهو يأكل الخبز الأسمر بالزيتون الأسود ، يدفع اللقمة في فمه ويتناول الثانية بيده ، ويأخذ الثالثة بيمينه ، فتمنى أن يجد مثل هذه الشهية ويكون بستانياً ؟

فلماذا لا تقدرون ثمن الصحة ؟ أما للصحة ثمن ؟

من يرضى منكم أن ينزل عن بصره ويأخذ مائة ألف دولار؟ من يبيع قطعة من أنفه بأموال عبود باشا ؟

أما تعرفون قصة الرجل الذى ضل فى الصحراء ، وكاد يهلك جوعاً وعطشاً ، لما رأى غدير ماء وإلى جنبه كيس من الجلد ، فشرب من الغدير ، وفتح الكيس بأمل أن يجد فيه تمراً أو خبزاً يابساً ، فلما رأى ما فيه ، ارتد يأساً ، وسقط إعياء . لقد رآه مملوءاً بالذهب !

وذاك الذى رأى مثل ليلة القدر ، فزعموا ، أنه سأل ربه أن يحول كل ما مسته يده ذهباً ، واستجيبت دعوته ، فلمس الحصى فصار ذهباً ، ومس الخشب فصار ذهباً ، فكاد يجن من فرحته ، ومشى إلى بيته ما تسمه الدنيا ، وعمد إلى طعامه ليأكل فمس الطعام فصار ذهباً ، وبقى جائعاً ، وأقبلت بنته تواسيه ، فعانقها فصارت ذهباً ... فقعد يبكى يسأل ربه أن يعيد إليه بنته وسفرته وأن يبعد عنه الذهب .

وروتشلد الذى دخل خزانة ماله الهائلة فانصفق عليه بابها فمات غريقاً فى بحر من الذهب .

يا سادة : لماذا تطلبون الذهب وأنتم تملكون ذهباً كثيراً ؟ أليس البصر من ذهب ، والصحة من ذهب ، والوقت من ذهب ؟ فلماذا لا تستفيد من أوقاتنا ؟ لماذا لا تعرف قيمة الحياة ؟

كافتنى المحطة بهذه الأحاديث الأربعة من شهر ، فما زلت أماطل بها ، والوقت يمر ، أيامه ساعات ، وساعاته دقائق ، لا أشعر بها ولا أنتفع منها، فكأنها صناديق ضخمة خالية ، حتى إذا دنا الموعد ولم يبق إلا يوم واحد، أقبلت على الوقت أنتفع به ، فكانت الدقيقة ساعة، والساعة يوماً، فكأنها الحلب الصغيرة المترعة جوهراً وتبراً ، واستفدت من كل لحظة حتى إنى لأكتب هذا الحديث والله، فى محطة (باب اللوق) وأنا أنتظر الترام فى زحمة الناس وتدافع الركاب ، فكانت لحظة أبرك علىّ من تلك الأيام كلها ، وأسفت على أمثالها ، فلو أنى فكرت كلما وقفت أنتظر الترام بشىء أكتبه ، وأنا أقف كل يوم أكثر من ساعة متفرقة أجزاؤها ، لربحت شيئاً كثيراً . ولقد كان صديقنا الأستاذ الشيخ بهجة البيطار يتردد من سنوات بين دمشق وبيروت ، يعلم فى كلية المقاصد وثانوية البنات ، فكان يتسلى فى القطار بالنظر فى كتاب (قواعد التحديث) للامام القاسمى ، فكان من ذلك تصحيحاته وتعليقاته المطبوعة مع الكتاب ، والعلامة ابن عابدين كان يطالع دائماً، حتى أنه إذا قام إلى الوضوء أو قعد للأكل أمر من يتلو عليه شيئاً من العلم فألف (الحاشية) . والسرخسى أملى وهو محبوس فى الجب ، كتابه المبسوط ، أجل كتب الفقه فى الدنيا ، وأنا أعجب ممن يشكو ضيق الوقت ، وهل يضيق الوقت إلا الغفلة أو الفوضى ؟ أنظروا كم يقرأ الطالب ليلة الامتحان ، تروا أنه لو قرأ مثله لا أقول كل ليلة ، بل كل أسبوع مرة لكان علامة الدنيا ، بل انظروا إلى هؤلاء الذين ألفوا مئات الكتب كابن الجوزى والطبرى والسيوطي والجاحظ ، بل خذوا كتاباً واحداً كنهاية الأرب ، أو لسان العرب، وانظروا ، هل يستطيع واحد منكم أن يصبر على قراءته كله ونسخه مرة واحدة بخطه فضلا عن تأليف مثله من عنده ؟

والذهن البشرى ، أليس ثروة ؟ أماله ثمن؟ فلماذا نشقى بالجنون ولا نسعد بالعقل ؟ لماذا لا تمكن للذهن أن يعمل ولو عمل لجاء بالمدهشات ؟ لا أذكركم بشىء قريب منكم ، سهل عليكم ، هو الحفظ ، إنكم تسمعون قصة البخارى لما امتحنوه بمائة حديث خلطوا متونها وأسنادها ، فأعاد المائة بخطئها وصوابها. والشافعى لما كتب مجلس مالك بريقه على كفه ، وأعاده من حفظه . والمعرى لما سمع أرمنيين يتحاسبان بلغتهما ، فلما استشهداه أعاد كلامهما وهو لا يفهمه . والأصمعى وحماد الراوية وما كانا يحفظان من الأخبار والأشعار . وأحمد وابن معين وما كانا يرويان من الأحاديث والآثار . والمئات من أمثال هؤلاء ... فتعجبون ، ولو فكرتم فى أنفسكم لرأيتم أنكم قادرون على مثل هذا ولكنكم لا تفعلون .

أنظروا كم يحفظ كل منكم من أسماء الناس والبلدان ، والصحف والمجلات ، والأغانى والنكات ، والمطاعم والمشارب ، وكم قصة يروى من قصص الناس والتاريخ ، وكم يشغل من ذهنه ما يمر به كل يوم من المقروءات والمرئيات والمسموعات فلو وضع مكان هذا الباطل علماً خالصاً ، لكان مثل هؤلاء الذين ذكرت .